



جمعية جامعة المحبة
المركز الثقافي
Culture Center

الكاتب : اسامة غريب

جريدة : المصرى اليوم
التاريخ : 31 ديسمبر 2009
الصفحة : 21
العدد : 2027

السنة : 6



أسامة غريب

ogharib200@yahoo.com

صباح التجلى.. فى الأمان يا للى

هل تلاحظون أن معدل سريان الغيبوبة فى الجسم المصرى قد تسارعت وتيرته، وأنه لم يتيق سوى وقت قليل حتى يرقد الجسم العليل فاقدًا الحركة تمامًا؟

منذ سنوات كان لى صديق حديث التخرج فى كلية الطب.. رأى صديقى كبار الأطباء الذين يشغلون مناصب جامعية يمارسون الإجرام فى حق المرضى ويتقاضون مبالغ باهظة مقابل تقديم خدمة طبية عفنة شديدة التدنى، ورأى الحكومة لا تتحرك والمجتمع لا يقاوم ففقد إيمانه بكل ما تعلمه وقرر أن ينزل السوق وفقًا لمعاييرها. أحضر صديقى بطارية ضوئية تطلق خطوطًا من النور الرفيع متعدد الألوان وقام بوضعها داخل صندوق صغير، ثم كتب على اللافتة فوق عيادته بشارع الصناديل «الكشف بالأشعة فوق الحمراء». وكان صديقى يستعين بمرضنة لعوب كانت تقوم بالدعاية له وسط أبناء الرجى وتحكى عن شطارته ومهارته، وفى العيادة كانت تتسلم خمسين جنيهًا من كل مريض وتقوم فى الوقت نفسه بتشغيل بطارية النور التى تعمل بحجرين قلم وتسلطها على الموضع الذى يحدده لها الطبيب، وأحيانًا كان يضاعف الفيزيتا على المريض إذا رأى أنه يحتاج أشعة أكثر وقد يستهلك الحجر كله!

هذا وقد نال صديقى الطبيب شهرة مدوية فى المنطقة، وأصبح الناس يتسابقون على الحجز عنده ليكشف عليهم بالبطارية الصينى التى كانت بـ ٣٠ قرشًا فى ذلك الوقت!

شيء من ذلك رأيت في الأيام الماضية عندما قام مجموعة من الشباب خفيضي الظل، أرادوا أن يسرّوا عن أنفسهم، فأحضروا بطارية متطورة تطلق أشعة ملونة وفعلوا ما فعله صديقي الطبيب فجعلوا ضوء البطارية ينطلق من فوق كنيسة في الوراق، وشاهدوا الناس الطيبين المكشوفين من سكان الوراق مسيحيين ومسلمين في غاية النشوة والسعادة، بعد أن صور لهم اليأس ولفافات البانجو أن ضوء البطارية هو السيدة العذراء مريم!! لا أستطيع أن أنكر إحساسي بالأسى على حال الفقراء المعذبين في الأرض الذين يترنحون تحت وقع الضربات التي يتلقونها من الحكومة ومن رجال الدين على السواء، وكأنما لا يكفيهم ما هم فيه من ضنك وبؤس فيقوم العابثون بالسخرية منهم ومشاكلتهم بضوء البطارية بدلا من توفير الخبز والوظائف والماء النظيف لهم. ولا ألوهم الفقراء الذين لا يملكون العلم والمنطق ولا يستطيعون أن يكشفوا الحيلة البسيطة، كما لا ألوهم الحكومة التي تركت الناس يتلهون في خيبتهم الثقيلة حتى ينسوا حالهم البائس، وبالطبع لا ألوهم رجال الدين الذين تلتقى أشواقهم مع رجال الحكم في تلبيس الناس السلطانية والإبقاء على المعادلة بوضعها الراهن.. لكنني ألوهم المتعلمين في الوراق وفي باقي الأحياء التي انطلق إليها الشباب العايب ومعهما البطارية.. ألوهم لأنهم يستطيعون ببساطة أن يسألوا الناس عن الضوء المنطلق من البطارية ولماذا يعتبرونه العذراء بالتحديد؟ لماذا لا يكون هذا الضوء هو السيد المسيح؟ ولماذا لا يكون هو أحد القديسين؟ ولماذا لا يسألونهم السؤال الأهم: ما الذي استفادوه إذا كان هذا الضوء هو العذراء فعلا؟ وما الذي يستطيع الضوء أن يقدمه حلا لمشاكلهم؟ هل يستطيع الضوء أن يلغي الخط الهمايوني الذي يشكون أنه يمنعهم من بناء كنائسهم؟ هل بإمكانه أن يزوج البنات ويوظف الأولاد؟ هل يقدر أن ينهي الحكم الديكتاتوري وتزوير الانتخابات؟ هل ينهي التمييز الذي يعاني منه المسلم الفقير والمسيحي الفقير (لأن الأغنياء من الجانبين هم الذين يمارسون التمييز)؟ هل يستطيع هذا الضوء أن يحقق لهم المواطنة ويقيم الدولة المدنية؟ الإجابة معروفة وهي أن هذا الضوء أيا كان مصدره لا يستطيع أن يفعل للناس شيئا، لكنه يستطيع أن يخدم الحكومة ويخدم رجال الدين الذين قالوا إن الله اختصهم وحدهم بهذه المعجزة وحرم منها الآخرين! إن المصريين شعب متجانس، وهو نسيج واحد فعلا متشابه في كل شيء حتى في الإيمان بالخرافات وفي تقديس رجال الدين.. والأمر شبيه كل الشبه بما يردده بعض المسلمين الطيبين أحيانا عن الولي الذي شاهدوه يسير على الماء أو يحلق بجناحيه في الهواء! ولا يسأل أحد نفسه عملا استفادوه من المعجزة التي لم تقطع جاعما ولا كست عاريا.. ومع هذا لا أملك إلا أن أتساءل بمناسبة المثال السابق عن الولي الصالح: ماذا لو أن الاحتفال الطاغى بظهور العذراء كان قد قام به نفر من المسلمين احتفالا بوليهم الصالح؟ أما كانت نفس وسائل الإعلام التي تحتفي بظهور العذراء الآن ستقوم بالسخرية من الظلاميين الطالبانيين الذين ينشرون الدجل والخرافة والشعوذة في المجتمع المصري ويريدون أن يعودوا بالناس إلى القرون الوسطى؟ أما كان السادة المنوراتية أصحاب كلويات التنوير سيفتحون النار عليهم؟.. مال وسائل الإعلام قد روجت للبطارية وأصحابها ومالها تخشى من ذكر الحقيقة التي تعرفها وتمضي في مسامرة الحكومة المستعبدية التي تضحك على الناس ورجال الدين الذين لا يخفون سعادتهم بالضوء الشارد؟.. هل يكون السبب أن السادة المنوراتية هم أنفسهم أصحاب البطارية التي تعمل بـ«حجرين قلم» من ماركة القط الأسود؟